الفصل العاشر

فلسفة التحرير والثورة الجزائرية

البخاري حمانة(*)

تؤكد الدراسات الاجتماعية والسياسية أن ظاهرة الثورة من أهم الظواهر التي تميز السلوك. . بل الوجود البشري. لأن الإنسان وحده القادر، ومن خلال إدراكه للطابع المزري للواقع الذي يعيش فيه، على رفضه وعلى العمل على تغييره بواقع أفضل. بعيداً عن كُلّ استسلام له، وعن مجرد الإدانة اللفظية له.

ولأن الثورة كذلك فإنها قد شكلت، منذُ فجر التاريخ الإنساني وإلى اليوم، العامل الحاسم في كُلّ التغييرات الدينيّة والفكرية والأخلاقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعلمية والثقافية، التي عرفتها الإنسانية ولا تزال تعرفها إلى اليوم.

ذلك ما تؤكده على أي حال التغييرات التي تلت كُلّ تلك الثورات، ممثلة بصورة خاصة في الأديان السماوية. وفي التحولات السياسية والاجتماعية والثقافية والعلمية الكبرى التي عرفتها، ولا تزال للمجتمعات التي قامت بمثل تلك الثورات.

والثورة، وبخاصة التحريرية منها، وهي التي تهمنا هنا. ما كانت لتستطيع تحقيق مثل تلك التحولات الكبرى والحاسمة في تاريخ الإنسانية، إلا لأنها تمثل تبدلاً سريعاً، وعنيفاً في غالب الأحيان، في السياسة وفي نظام الحكم. وهو التبدل الذي لا يلبث أن يشكل انفصاماً في التاريخ، وحداً فاصلاً يقسم الأزمنة والأفكار والعادات والمعتقدات والقوانين، ومواضع الاهتمام، وأساليب التفكير والتدبير والسلوك، إلى ما قبل وإلى ما بعد.

(*) معهد الفلسفة، جامعة وهران ـ الجزائر.

ولأن الثورة كذلك، فإنها تشكل بالتالي هزة عنيفة وقطيعة حادة في صيرورة المجتمع. قطيعة تريدها جذرية، فاصلة، وشاملة لتجعل ما بعدها مختلفاً، إيجابياً، عما قبلها. وذلك من خلال ارتفاعها بالوعي، الفردي. والجماعي على حدّ سواء، إلى مستوى ذلك المستقبل الجديد الذي يطمح إليه. والذي يحول الواقع المزري المعاش إلى واقع مرفوض جملة وتفصيلاً.

من هنا الفرق بين الثورة وبين غيرها من كُلّ الأشكال الأخرى الرافضة للواقع وبخاصة العصيان والتمرد والانقلاب، بل والإصلاح.

العصيان ليس سوى مجرد انتفاضة مسلحة، أو غير مسلحة، ضدّ السلطة القائمة وضدّ الواقع المجسدة له. دونما مشروع سياسي واجتماعي بديل لتلك السلطة وللواقع المجسدة له.

والتمرد، بالرغم من طابعه العصياني الموجه ضدّ السلطة القائمة، وبالرغم من تمهيده في بعض الأحيان للثورة، فإنه يظل مع ذلك غير الثورة. وذلك لسبب بسيط، وهو أنّه يظل دوماً متوقفاً، وعلى حدّ تعبير أ. كامو (Camus) (L'Homme réviolté) عن مجرد «اللا» لتلك السلطة ولذلك الواقع، دونما تجاوزه نحو مشروع سياسي واجتماعي بديل.

ذلك ما يؤكده على أي حال تمرد سبارتاكوس في القديم، وتمرد كاتالونيا (إسبانيا عام ١٩٠٧) في العصور الحديثة.

أما الانقلاب، فإنه بالرغم من أنّه قد يشكل المرحلة الأولى للثورة، فإنه كثيراً ما يتحول في النهاية إلى مجرد حركة رافضة للسلطة وهادفة إلى مجرد الحلول مكانها.

يبقى بعد ذلك الإصلاح الذي يمثل الشكل الثاني للثورة. نظراً إلى الطابع التدريجي والمسالم للتغيير الحامل له، ذلك التغيير الذي يظل محتفظاً بالتالي بالطابع العام، لذلك الواقع الذي يريد تغييره.

ولأن الإصلاح، وبخاصة في العالم العربي والإسلامي يستمد أسسه، وكما تؤكد ذلك حركة النهضة العربية الإسلامية بصورة خاصة، من القرآن الكريم ومن السنة النبوية الشريفة. فإنه يمثل أساساً ردّ فعل على تراجع الدين داخل المجتمع العربي الإسلامي، نتيجة للانحطاط الثقافي والاجتماعي والسياسي الذي أفرزه ذلك التراجع وذلك الانسلاخ في شروط الوجود.

لكُلّ ذلك فإن الإصلاح يعتبر محاولة لوضع الإسلام الاجتماعي في مستوى الإسلام المعياري وذلك من خلال العمل على إعادة إحياء الوعي الديني وصولاً إلى

تمكينه من إدراك المخاطر الداخلية والخارجية التي تهدد أمته بالتمزق وبالاندثار[١].

نخلص مما تقدم إلى أن الثورة. . التحريرية خاصة. . فكرة. . أو فلسفة، تتميز عن غيرها من كُلّ تلك الأفكار العصيانية والتمردية والانقلابية والإصلاحية، لا برفضها النظري، للواقع المزري، أو بنفيها اللفظي له، كما فعل ولا يزال يفعل الطوباويون والحالمون، ودعاة استراتيجية الرفض. بل بمقاربتها الواقعية والأصيلة له، وبعملها بعد ذلك على تغييره بحدّ السلاح.

ولكي تتحقق مثل تلك المقاربة للواقع الاستعماري، ولكي تنجح الثورة في تغييره، فإنها مطالبة بالتالي بتمثله، تمثلاً يجعلها قادرة على النفاذ إلى الأسس التي يستند إليها وصولاً إلى تفجيرها وإحداث مثل تلك الهزة العنيفة فيه.

لكُلّ ذلك فإن ما يميز الثورة التحريرية الحقيقية ليس مدى رفضها للواقع الاستعماري فحسب، بل ومدى قدرتها على الفعل فيه. وذلك من خلال اتصالها العميق به وانفصالها الكلي عنه في الوقت نفسه، وصولاً إلى توظيف معرفتها العميقة تلك به لتفجيرها ولتدميره إلى الأبد.

نعود إلى تلك الهزة الثورية لنقول إنها هي التي تحول الحياة الإنسانية من حياة أو وجود من أجل الموت، كما ذهب هيدغر، إلى وجود من أجل تحقيق الذات نظراً إلى أن الإنسان هو وحده الكائن المدرك بأن هدف المغامرة الوجودية ليس الموت، بل تحقيق ذاته كما يلاحظ ريمون آرون (Raymond Aron)[٢].

كما إنَّ تلك الهزة هي التي لا تلبث آثارها أن تنعكس على علاقة الإنسان بواقعه لتجعله يدرك في النهاية اغترابه في ذلك الواقع الاستعماري بخاصة، وفقدانه لاتساقه الفكري والنفسي، ولأهدافه فيه.

كما إنها هي التي تكشف له كذلك عن ذاته وعن ضرورة إعادة تجديدها انطلاقاً مما هي كائنة ومما تريد أن تكون، وصولاً إلى تلك الجدلية المتجددة التي تلتقي فيها المعرفة الباطنية (للذات) والاختيار الموضوعي، القبول بالواقع والجهد من أجل تجاوزه في الوقت ذاته.

---

(١) Ali Mérad, *Le Réformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940: Essai d'histoire religieuse et sociale*, maison des sciences de l'homme, recherches méditerranéennes, études; 7 (Le Haye: Mouton et Co., 1967), p. 215.

(٢) Raymond Aron, *Introduction à la philosophie de l'histoire; essai sur les limites de l'objecivité historique* (Paris: Gallimard, [1938]), p. 52.

بمثل ذلك يتحول التشاؤم السلبي للفرد وللجماعة على حدّ سواء، أمام الواقع الاستعماري، إلى تشاؤم إيجابي لا يلبث أن يولد لديه شعوراً بضرورة العمل على تجاوزه وعلى إعادة اتساقه وتوازنه أمام ذلك الواقع الذي يتحول لديه لدى الفرد، إلى ما يشبه الكابوس الذي عليه الخروج منه بأقصى سرعة.

إن مثل هذا العمل الهادف لتجاوز الواقع ولإعادة التوازن إلى الذات، هو الذي لا يلبث، من خلال كشفه للفرد وللجماعة على حدّ سواء، عن حاجات جديدة وعن إمكانيات جديدة لتحقيقها، عن مدى دقة الخيط الذي يربط بين رفض الواقع وبين العمل على تغييره. ذلك الخيط الذي عليه الإمساك والتمسك به بقوة حتّى لا يقع المشروع الثوري العامل له في دوائر التمرد والانقلاب.

بذلك تدرك الثورة طبيعة المسافة التي عليها أن تعرف كيف تتجاوزها حتّى لا تقع في حدود تلك الدوائر.

وليس ذلك الخيط الرفيع سوى الفكر الذي بلغ الدرجة من العمق ومن الأصالة في تمثله للواقع الاستعماري، تجعله قادراً على تحديد الصورة المثلى التي يريد استبداله بها وللأسباب الموضوعية التي مكنته من الوجود ومن الاستمرار.

كما إنَّ تلك المسافة ليست بدورها سوى ذلك العمل الثوري النوعي الكفيل بتجسيد ذلك الواقع البديل.

لكُلّ ذلك كانت الفلسفة الثورية الحقيقية، فلسفة مستبقة للمستقبل، وذلك من خلال تجاوزها للحاضر وللواقع المجسد له.

ولكل ذلك كان السؤال الملح الأول الذي يواجه كُلّ مشروع ثوري هو: كيف يمكن له أن يجعل الوعي الفردي والجماعي ينفذ إلى الواقع الاستعماري ويتمثل بعمق معطياته، كشرط للخروج بمفاهيم جديدة عنه، تلك المفاهيم التي لا تلبث أن تبدأ في التفاعل داخل ذلك الوغى الفردي والجماعي محدثة بذلك تلك الهزة العنيفة في الذات، التي لا تلبث أن تمتد في دوائر متتالية، ومتسارعة من الذات الفردية إلى الذات الجماعية، معلنة عن ميلاد الثورة.

وأمام هذا السؤال الملح، فإن الثورة الحقيقية لا تجد له من جواب سوى الإسراع في تكوين وعي الجماهير بواقعها الاستعماري، وبالأسس والركائز التي مكنت لذلك الواقع من التواجد ومن الاستمرار، وصولاً إلى تحطيمها.

وفى تلك المواجهة الحتمية بين الفكرة الثورية والفكرة الاستعمارية (أو الاستبدادية)، تتبين الجماهير أن الفكر الثوري ليس فقط الفكر المتشبع بالثورة أو

المبشر بها، بل إنه كذلك الفكر العامل على تجسيدها فوق أرض الواقع والمتحمل لكُلّ نتائجها المتوقعة وغير المتوقعة.

بمثل ذلك، تخلق الثورة ديناميتها الذاتية، المتجاوزة للفرد وللجماعة، تلك الدينامية التي يتحول فيها النظر إلى مكمل للعمل، اكتمالاً يجعل العمل لا يتحدد إلا من خلال النظر، وهذا الأخير لا يتجسد كقيمة إلا من خلال العمل، إلا لكي تنسجم الغاية مع الوسيلة انسجاماً يجعل الوسيلة لا تتحدد إلا تبعاً للغاية التي تنشدها، بقدر ما يجعل الغاية لا تتبلور، بدورها إلا من خلال الوسيلة التي تجسدها.

وبذلك تبدأ الشعارات والأفكار والآمال الثورية التي كانت تبدو قبل ذلك، بالنسبة إلى الفرد والجماعة على حدّ سواء، مستحيلة، في التجسد التدريجي على أرض الواقع، تجسيداً لا يزيد في النهاية، الفرد والجماعة، سوى التحام حولها.

وبذلك يرتبط مفهوم الحرية والاستقلال بالجماهير، وتتحول الثورة بالتالي إلى ظاهرة ديمقراطية، تتجاوز الرفض الفردي الفوضوي وغير الفاعل، للواقع الاستعماري القائم، إلى رفض جماعي فاعل ومنظم، وإلى مصدر وحيد بالتالي لتلك السلطة الجديدة المتولدة عن مثل ذلك الرفض.

وبذلك أيضاً تنأى الثورة بنفسها عن دوائر كُلّ تلك الأشكال غير الثورية الرافضة للواقع، وعن كُلّ أشكال المراهقة الثورية، كذلك ترتبط نهائياً بالجماهير التي لا تلبث باحتضانها الكلي والتلقائي لها، أن تؤكد لأعدائها ولأصدقائها على حدّ سواء، أن الثورة ليست أحلاماً فقط، بل إنها امتلاك كذلك لتواصي تلك الأحلام في الوقت نفسه.

وأن التاريخ ليحدثنا عن العديد من دعاة الثورة الذين بدأوا ثواراً وانتهوا أمام ترددهم أو هروبهم أمام نتائج مشاريعهم الثورية تلك، مستسلمين لذلك الواقع الذي أرادوا الثورة عليه، بل وإلى مضادين لمبدأ الثورة ذاته.

لكُلّ ذلك كانت الثورة الحقيقية عبارة عن انتقال نوعي وكلي بالوعي، الفردي والجماعي على حدّ سواء، من الواقع الاستعماري، (أو الاستبدادي) الكائن، إلى الواقع الثوري الوطني، الذي يمكن ويجب أن يكون، ودفن للقديم في الجديد، وليس مجرد تركيب لهما كما ذهب هيغل.

ولكل ذلك أيضاً كانت عهود الثورات الفكرية دوماً متقدمة على غيرها من العهود السياسية والاجتماعية الأخرى، لأنها انتقال بالشعوب من مرحلة التقبل السلبي للواقع المزري، إلى مرحلة العمل على تغييره بواقع أفضل. ومن مرحلة

الاحتمال السلبي له إلى مرحلة التحمل الإيجابي له. وذلك ما أدركته كُلّ النظم الاستعمارية (أو الاستبدادية)، والتي رأت بالتالي في كُلّ يقظة فكرية للشعوب الرازحة، تحت سيطرتها تهديداً مباشراً لها، يجب العمل على قمعه وإجهاضه قبل أن يؤدي بالجماهير إلى الثورة.

هكذا تخرج الثورة، من ذلك الموقف اللامبالي وغير الفاعل الذي توهّمه لها البعض، تجاه الواقع، لترتبط به وبالتاريخ المتجسد من خلاله، ارتباطاً يجعلها بالتالي، وكما يلاحظ كروتشه (Croce)[٣] لا في بداية ذلك التاريخ أو في نهايته، أو خارجه، بل في كُلّ فترة من فتراته، بقدر ما يضفي على التاريخ بدوره وعلى أحداثه، ذلك الطابع المنطقي، الفلسفي، الذي بفضله يأخذ صفة المعقولية ويبعد عن العشوائية.

إن مثل هاته العلاقة الجديدة للفكر والوعي بالواقع الاستعماري بخاصة، هي التي تنقل في النهاية بالسلوك الفردي والجماعي من مرحلة السلبية واللاوعي، إلى ذلك المنظور الفكري والعلمي الجديد. . والذي ليس شيئاً آخر سوى ما نسميه بالأيديولوجيا. كما إنها هي التي تجعل كُلّ فلسفة للتاريخ لا تتطور إلا من خلال حركية متجددة ومتنقلة باستمرار من الحياة إلى الوعي، ومن الوعي إلى الفكر، ومن الفكر إلى الإرادة، ومن الإرادة إلى العمل المجسد لها.

ولأن الأيديولوجيا، وطنية كانت أو استعمارية، أكبر من مجرد علاقات وهمية للأفراد مع ظروف حياتهم[٤]، فهي نظام من التصورات والمفاهيم والصور والممارسات الواعية بواقعها[٥] فإن كُلّ فلسفة بالتالي، حتّى تلك الرافضة للواقع ومتضمنة للأيديولوجيا أدركت ذلك أم لم تدرك.

من هذا المنظور كانت فلسفة أفلاطون مثلاً متضمنة ومن خلال تحديدها بالتالي لسلوكيات وممارسات معينة تجاه ذلك الواقع، للأيديولوجيا، تماماً مثل فلسفة أرسطو وجان بول سارتر (ت ١٩٨٠).

نعود إلى الثورة لنقول إن الفلسفة الثورية ليست بالتالي تلك الهادفة إلى استبدال الواقع بالخيال، كما فعل ويفعل المثاليون، القدماء منهم والمحدثون، فلو كانت

---

(٣) B. Croce, «La Logique comme science du concept pur,» dans: Paul Olivier, *Croce: ou, l'affirmation de l'immanence absolue: Présentation, choix de textes [de B. Croce]*, philosophie (Paris: Seghers, 1975), pp. 143-151.

(٤) Louis Althusser: dans: *La Pensée* (Paris) (juin 1990), et *Pour Marx*, théorie; 1 (Paris: F. Maspero, 1966), p. 238.

(٥) Michel Vovelle, *Idéologies et mentalités* (Paris: La Découverte, 1985), p. 6.

الفلسفة الثورية كذلك، لتحول الطوباويون والحالمون إلى أكبر الثوار في التاريخ.

كما إنَّ الثورة ليست تلك الهادفة من وراء تأملها الروحي والفكري للواقع، إلى الخلاص الفردي منه، كما هو الحال عند العديد من المتصوفة، فلو كانت الفلسفة الثورية كذلك لتحولت الثورة إلى قضية فردية، ولما كانت ثورة بالتالي.

وأخيراً وليس آخراً، فإن الثورة لو كانت مجرد فكرة مطابقة اعتباطية للواقع ومعطياته مع العقل، كما ذهب إلى ذلك هيغل (ت ١٨٣١) بحجة أن كُلّ ما هو واقعي معقول[٦]، لما برزت لا معقولية ذلك الواقع أصلاً أو ضرورة الثورة عليه بالتالي، ولاستحال بالتالي تصور الثورة بحد ذاتها.

ولا يغيّر من هذه الحقيقة كثيراً قول البعض من الوضعيين إن الثورة ومشروعها تعدّ واحدة من معطيات الواقع، وهي معقولة بدورها كذلك، لسبب بسيط وهو أن ذلك الواقع يشترك فيه كُلّ من المستعمِر (بكسر الميم) والمستعمَر (بفتحها). لكن الأول يرضى عنه، والثاني يرفضه. إضافة إلى أن الثورة مشروع يجب أن يتجسد أولاً، ضدّ ذلك الواقع وعلى أنقاضه، حتّى يتحول إلى حقيقة.

لكُلّ ذلك نقول، مرة أخرى إن الثورة التي نقصدها هنا، هي تلك المتمثلة نقدياً وبعمق للواقع، والعاملة في الوقت نفسه على تغييره بواقع أفضل.

غير أن الثورة في سعيها هذا إلى تقويض ما هو كائن باسم ما يجب ويمكن أن يكون، لا تلبث أن تصطدم بالعديد من حقائق ذلك الواقع المرفوض، تلك الحقائق التي عليها تمثّلها أولاً، وبعمق، كشرط لتجاوزها ولتجاوز الواقع المستند إليها.

بذلك تبدو الثورة بذلك الطابع الازدواجي المتناقض ظاهرياً فقط، والذي يجعل منها دعوة إلى المستقبل وعودة في الوقت نفسه إلى الحاضر والماضي، انفصالاً عن كُلّ منهما، واتصالاً بهما في الوقت نفسه.

وتطبيقاً لكُلّ هذه المفاهيم على ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر التحريرية، نقول إن هذه الثورة، ما كان يمكنها إنجاز ما أنجزت، لو لم تكن وليدة نظرة أصيلة ونقدية للواقع الوطني، تلك النظرة التي جعلت بالتالي من طلائعها الفئة الوطنية الوحيدة التي نظرت إلى ذلك الواقع المزري، الذي ظن المستعمر أنّه أغرق إلى الأبد المجتمع الجزائري فيه، نظرة مختلفة عن نظرة كُلّ الأحزاب السياسية الوطنية، فضلاً عن نظرة

---

(٦) G. W. F. Hegel, *La Raison dans l'histoire: Introduction à la philosophie de l'histoire*, trad. nouv., introd. et notes par Kostas Papaioannou, le monde en 10/18; 235-236 (Paris: Union générale d'éditions, 1965), pp. 47-53.

المستعمر إليه كما تؤكد ذلك هذه الفقرة من بيان أول تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤ «فنحن نعتبر، قبل كُلّ شيء أن الحركة الوطنية ـ بعد مراحل من الكفاح ـ قد أدركت مرحلة التحقيق النهائية. . . فإننا نعتبر الشعب الجزائري في أوضاعه الداخلية متحداً حول قضية الاستقلال والعمل»[٧].

فحيث لم ترَ تلك الأحزاب السياسية الوطنية ـ التي لا نشكّ في إخلاصها أو نهوّن من مدى الجهود التي بذلتها من أجل بلورة الشعور الوطني لدى الشعب الجزائري ـ من هذا الشعب إلا ضعفه، اكتشفت تلك الطليعة، قواه الكامنة، وحيث لم تتبين إلا هول اندثاره، تلمست تلك الطليعة بواكير انبعاثه.

وحيث أرجف كُلّ المرجفون بفشله الحتمي في أي مواجهة مسلحة قد يتجرأ على القيام بها في وجه المستعمر، استشفّت تلك الطليعة الثورية نصره الحتمي.

بذلك استطاعت تلك الطليعة، الثورية، المعبرة عملياً، ونظرياً، عن آمال الأمة، أن ترتفع بفضل تلك النظرة الأصيلة فوق الواقع المأساوي للشعب الجزائري، لتعانق معه ذلك المستقبل الذي ما انفكّ يرنو إليه والتي آمنت أنّه قادر على صنعه.

وغني عن البيان أن تلك الطليعة الثورية ما كانت لتتوصل لمثل تلك النظرة الأصيلة والنقدية للواقع الوطني، لو لم تكن نابعة من أعماق الشعب الجزائري، ولو لم تولد في لهيب معاركه التحريرية التي ما انفك يخوضها ضدّ المستعمر منذُ اليوم الأول لاحتلال أرضه. تلك المعارك التي جاءت ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر التحريرية بمثابة التتويج النهائي والحاسم لها.

لكُلّ ذلك كانت فلسفة تشرين الثاني/ نوفمبر التحريرية، بمثابة الثمرة الفريدة لعبقرية هذا الشعب، والتعبير الصادق عن آماله وآلامه، والتجسيد الحي لفاعلية قيمه الوطنية العربية الإسلامية، ولأصالة تقاليده النضالية.

ولأن فلسفة تشرين الثاني/ نوفمبر هي كذلك، فإن الثورة التي تولدت عنها كانت بحقّ ثورة تحريرية وطنية شعبية لم تزد مواجهتها بالواقع الاستعماري نسقها إلاّ تأكيداً وانسجاماً، ومنهجها إلاّ فاعلية، تماماً كما لم يزد استلهام العالم الثالث لها في كفاحه من أجل استعادة استقلاله، آفاق تحرره إلا اتساعاً.

بذلك لم تكن ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر التحريرية، مجرد تمرد[٨] أو عصيان،

---

(٧) للاطلاع على بيان أول من تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٥٤، انظر: <http://www.ffs-dz.com/ article.php?id_article = 138>.

(٨) *El Moudjahid*, no. 4 ([1956]), pp. 66-67.

كما توهم المستعمر في البداية، أو حاول أن يتوهم بذلك، وهذا قبل أن ترغمه في النهاية على الاعتراف بأنها حرب تحرير وطنية.

وإدراكاً من فلسفة تشرين الثاني/ نوفمبر أن الثورة التحريرية الجديرة بهذا الاسم ليست مجرد حرب، أو سفكاً للدماء غزيراً، بل إنها بالدرجة الأولى تغيير جذري وشامل لا يؤدي فيه العنف العسكري بخاصة، سوى دور الوسيلة، أكدت هذا الثورة أكثر من مرة، أنها ليست وكما يدعي الاستعمار الفرنسي، مجرد تمرد فوضوي، بل إنها ثورة تحريرية وطنية منظمة، وأنها حتّى لو سلمت بأنها تمرد، فإن ذلك التمرد، تمرد أخلاقي وعسكري ولّدته حواجز الظلم التي اصطدمت بها آمال كُلّ الأجيال الجزائرية الناشئة[٩] منذُ الاحتلال الفرنسي للجزائر.

وكما لم تكن ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر مجرد عصيان أو تمرد، فإنها لم تكن كذلك وكما ذهبت بعض رموز «حزب الشعب» وفي مقدمهم المرحوم مصالي الحاج انقلاباً أو مؤامرة داخلية[١٠] ضدّ الحزب، حزب الشعب، تماماً كما لم تكن، وكما وصفها، بعض رموز جمعية العلماء[١١]، مغامرة.

وإذا كانت ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر قد أعلنت ونادت بضرورة المقاومة ضدّ المستعمر، فإنها لم تفعل ذلك للتخفيف من الواقع المأساوي المجسد له، وكما فعل ذلك، ومن دون جدوى كبيرة، الشبان الجزائريون (عام ١٨٩٢)، والمعلمون الأهالي (عام ١٩٢٤)، والمنتخبون (عام ١٩٣٤) والشيوعيون الجزائريون، بل لتجاوزته.

كذلك فإن ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر التحريرية، إذا كانت قد أخذت في البداية شكل المقاومة، شأنها في ذلك شأن كُلّ ثورة، فإنها رفضت أن تبقى بعد ذلك عند حدودها كما فعلت العديد من الانتفاضات الوطنية التي سبقتها، والتي لم تتوصل بالتالي، ولأسباب عدة ـ لا مجال للتوقف عندها هنا ـ لأية نتيجة مع المستعمر.

ضمن هذا المنظور كانت عملية تغيير هذه الثورة لصحيفة **المقاومة** بصحيفة **المجاهد** (عام ١٩٥٦)، مؤكّدة بذلك أنها قد انتقلت من دائرة الانتفاضة إلى دائرة الحرب التحريرية، وهي الحرب التي لم تستهدف منها مجرد الحرب، بل إجبار العدو

---

(٩) المصدر نفسه، ص ٧٩.

(١٠) Mohammed Harbi, *La Guerre commence en Algérie: 1954*, la mémoire du peuple; 36 (Bruxelles: Complexe, 1984), pp. 41-44.

(١١) المصدر نفسه، ص ٤٤ ـ ٤٥.

على القبول بأهدافها السلمية، وذلك انطلاقاً من قناعتها بأن أهداف الحرب تظل متمثلة في النهاية في الوصول إلى مثل تلك الأهداف(١٢).

وأخيراً فإن ثورة تشرين الثاني/ نوفمبر التحريرية إذا كانت قد وقفت موقفاً متحفظاً من الحركة الإصلاحية في العالمين العربي والإسلامي عامة، وفي الجزائر بخاصة، فإن ذلك راجع إلى قناعتها بأن ذلك الإصلاح الذي لا تشكّ أو تشكك في الدور المهم الذي أداه، كتيار محافظ للنهضة، في بلورة الوعي العربي والإسلامي بروح الإسلام الحقيقة، وبواقعها المزري الذي تولد عن ابتعاده عن تلك الروح، فإنها تظل مع ذلك تعيب على الإصلاح اقتصاره على الجانب التربوي في تلك التوعية، وانحصاره في دوائر النخبة والطبقات الحاكمة في البلدان العربية والإسلامية، دونما نفاد يذكر إلى الجماهير، التي تظل من دون تحولات اجتماعية عميقة تمكنها من افتكاك حريتها، غير فاعلة في النهاية(١٣)، وغير مهيئة عملياً للثورة.

بذلك كانت فلسفة تشرين الثاني/ نوفمبر بحقّ ثورة تحريرية متميزة ليس فقط عن غيرها من كُلّ تلك الأشكال ـ الرافضة للواقع، بل وعن غيرها من العديد من الثورات التحريرية الأخرى المعاصرة لها كذلك.

«وبذلك أيضاً كانت بمثابة الإعلان الحاسم لكُلّ الشعوب المستعمرة في العالم عامة، وفي العالمين العربي والأفريقي بخاصة، وللمستعمر كذلك. لا عن استحالة استمرار ذلك التعايش مع الأيام السالفة لكُلّ منهما»(١٤)، بل وعن نهاية مثل هذا التعايش إلى الأبد. وعن بداية ذلك التاريخ الجديد الذي صنعته لكُلّ منهما على حدّ سواء.

---

(١٢) *El Moudjahid*, no. 4 ([1956]), p. 66.

(١٣) *El Moudjahid* (15 janvier 1959).

(١٤) Douglas Hyde, «The Roots of Guerrilla,» in: Daho Feghrour, «Theory and Practice: A Case Study, Algeria, 1930-1954,» (Dissertation Presented to the Graduate School of Arts and Sciences, University of Denvers, U.S. A., May 1984).